البحر المتوسط ومهد العمران

اختلف العلماء في مهد الانسان والبقعة التي تكوّن من ترابها او ترقّى فيها فصار انسانًا ولكنهم اتفقوا على ان مهد الحضارة والعمران على شواطىء البحر المتوسط في هذه البقاع الطيبة حيث كانت منف وصور وصيداء وترسيس واثينا وروميه وقرطاجنّة

ويظهر بالبحث وامعان النظر ان البحر المتوسط كان منفصلاً عن الاوقيانوس الاتلنتيكي ببوغاز جبل طارق وان هذا البوغاز كان جبلاً موصلاً بين اوربا وافريقية وان البحر المتوسط نفسه كان مقسومًا الى بحرين شرقي وبحري الآن البحر الفينيقي وغربي وبحري البحر القرطاجني والفاصل بينهما اراضٍ مرتفعة ممتدة من بلاد ايطاليا الى جزيرة صقلية فتونس وعمق الماء هناك الآن من ثلاثين الى ٢٥٠ قامة فقط وعمق البحر المتوسط عادةً من الف قامة الى الفين وكانت الحيوانات تعبر من أفريقية الى اوربا على هذا الفاصل ولم تزل آثارها في جزيرة صقلية ومالطة حتى يومنا هذا. والظاهر ان الماء غمر هذا الفاصل ووصل بين البحرين لما دخل من بوغاز جبل طارق

وتفصيل ذلك ان مساحة سطح البحر المتوسط والبحر الاسود المتصل به نحو مليون من الاميال المربعة وجرم المياه التي تصبها الانهار فيهما نحو ٣٢٦ ميلاً مكعبًا في السنة ولو بُسط هذا الماء على سطحهما لعلا عليه نحو اربعين سنتيمترًا ويقع عليهما من المطر في السنة ما سمكهُ نحو ٨٠ سنتيمترًا فجملة الماء المنصب فيهما سنويًا نحو ١٢٠ سنتيمترًا ولكن التبخّر شديدٌ فيهما ولاسيما في البحر المتوسط فيبلغ نحو ١٧٠ سنتيمترًا في السنة فلو لم يكن لهُ متنفّس الى الاوقيانوس الاتلنتيكي لانخفض سطحهُ نحو نصف متر كل سنة. والظاهر ان الامر كان كذلك في احد العصور السالفة فكان سطح البحر المتوسط منخفضًا عن الفاصل الذي بين ايطاليا وتونس وكان هذا الفاصل جافًا يمشي عليهِ الحيوان وينمو فيهِ النبات ثم ثُغر بوغاز جبل طارق فجرى الماء من الاوقيانوس الى البحر المتوسط فارتفع سطحهُ كثيرًا وغمر ذلك الفاصل

والآن يجري الماء من البحر الى الاوقيانوس ومن الاوقيانوس الى البحر. والمجرى الاول سفلي وسرعتهُ نحو ميل ونصف في الساعة وفيهِ تجري المياهُ الثقيلة الشديدة الملوحة من البحر المتوسط الى الاوقيانوس والثاني علوي وسرعتهُ ثلاثة اميال في الساعة وفيهِ تجري المياه القليلة الملوحة من الاوقيانوس الى البحر المتوسط وتصب فيهِ مئة واربعين الف متر

مكتسب في الغاية من الزمان لتقوم مقام ما يصعد عنه بالتبخر السريع وما يجري بالمجرى السفلي . ومع ذلك لا يزال ماء البحر المتوسط اشد ملوحة من مياه غيره من البحار ما عدا البحر الاحمر . ويحدث مثل ذلك في الجانب الشرقي حيث يجري الماء الشديد الملوحة من البحر المتوسط الى البحر الاسود بمجرى سفلي والماء القليل الملوحة من البحر الاسود الى البحر المتوسط بمجرى علوي . ومتوسط حرارة الماء في البحر المتوسط على عمق خمسين قامة ٥٦ درجة وفي الاوقيانوس ٥٣ درجة فقط ولذلك يمكن تمييز ماء الواحد عن ماء الآخر بسهولة

وشاطىء البحر الفينيقي اكثر اجوانًا وخلجانًا من شاطىء البحر القرطاجني ولذلك عمّره الناس اولاً واتسعت متاجرهم فيه واتخذوا جباله اعلامًا يهتدون بها واجوانه مرافئ يلجئون اليها عند اشتداد الانواء . كان السبق في ذلك للفينيقيين فهم اول من امتلك ناصية البحر واجرى فيه الجواري المنشئات واستأثر بغنى التجارة . وقد كانوا امّة عظيمة قبلما دخل اليهود فلسطين وكانت مدنهم في اوج عزها قبلما ذُكر اسم اليونان والرومان . وذهبت نحلٌ منهم وعمّرت جزائر البحر وشواطئه وبنوا فيها الهياكل الفخيمة والقلاع المنيعة

وظلّ الفينيقيون قرونًا كثيرة مستأثرين بالسيادة على البحر المتوسط الى ان نهض اليونان وجاروهم في هذا المضمار وانشأوا المستعمرات في مالطة وسردينيا وكورسكا وجنوبي فرنسا واسبانيا . وفي ذلك الحين بنى الفينيقيون قرطاجنة فصارت محطًا للتجارة بين المشرق والمغرب والشمال والجنوب وامتلكت تجارة افريقية حتى أُطلق اسم املاكها على اسم القارة كلها

وكان القرطاجنيون اشد الناس رغبة في الكسب فلم يهتموا بتعزيز قوتهم الحربيّة . ولولا حسن شرائعهم المدنيّة لافل نجمهم حالاً على ما قاله ارسطو الفيلسوف . ولذلك غالبتهم رومية وغلبتهم اولاً على صقلية وامتلكتها منهم فاضعفت قوتهم البحريّة ونزعت سطوتهم عن البحار ثم غلبتهم على بلادهم نفسها ودمرتها تدميرًا وكان ذلك قبل المسيح بمئتي سنة وسنة . ومن ثمّ ضعفت تجارة البحر المتوسط ولم تعد الى شأنها بعد ان بنيت قرطاجنة الثانية في عهد اوغسطس قيصر لان رومية لم تكن سوى هوّة عظيمة تنصبّ اليها بضائع مصر والشام واليونان وسائر المشرق فتضيع فيها ولا يستعاض عنها بشيء

ثم شطرت المملكة الرومانيّة شطرين سنة ٣٦٥ للمسيح وغزت قبائل الشمال البربريّة

ايطاليا وجنوبي اوربا وعبرت الاندلس الى افريقية سنة ٤٢٩ للمسيح وجعلت تغزو جنوبي اوربا منها واستتبّ لها الامر حتى سنة ٥٢٢ وكان الظفر قد حملها على الترف والبطر فنهرها بسفيانس واخذ ملكها اسيرًا الى القسطنطانيّة

وسنة ٦٤٧ للميلاد وفي السنة السابعة والعشرون للهجرة قام عبد الله بن سعد من مصر وقصد افريقية باربعين الف محارب وبعد السرايا في كل ناحية. قال ابن خلدون "وكان ملكهم جرجير (الاكسرخس جيورجيوس) يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت هرقل ويحمل اليه الخراج فلما بلغه الخبر جمع اليه مئة وعشرين الفًا من العساكر والتقيهم على يوم وليلة من سبيطلة (سفطلة) دار ملكهم وقال عبد الله بن الزبير لابن ابي سرح (قائد الجيش التي بعث بها الخليفة عثمان) ان يترك جماعة من ابطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب ويقاتلوا الروم بباقي العسكر الى ان يضجروا فيركب عليهم بالآخرين على غرة. ووافق على ذلك اعيان الصحابة وركبوا من الغد الى الزوال والحوا عليهم حتّى انهزموا ثم افترقوا واركب عبد الله الفريق الذين كانوا مستريحين فكبّروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم في خيامهم فانهزموا وقُتِل كثير منهم (من الروم) وحاصر ابن ابي سرح سبيطلة فتحها" وتوالى الفتح الى ان دانت افريقية كلها للمسلمين ودان معها البحر المتوسط فانتشرت سفائنهم فيه وارتفعت اعلامهم فوق اسوار مصر والشام والاندلس وجزائر البحر المتوسط وحكموا بالعدل في الرعيّة واجروا القسط ورفعوا شأن العلم والصناعة والزراعة. ثم ان التجارة التي احتازها الرومانيون واضعفوا شأنها اعتنى بها العرب ووسعوا نطاقها فعاد البحر المتوسط الى ما كان عليه في عهد الفينيقيين والقرطاجنيين. وانتشر تجارهم في اقطار المسكونة حتّى بلغوا الهند والصين شرقًا واخترقوا افريقية من مدغسكر الى نهر النيجر غربًا

وبلغت سطوة العرب اوجها في القرن التاسع للميلاد حينما استولوا على صقليّة وكانت البلاد قد دانت لهم من القفد الى الاندلس ثم انشقت ممالك المغرب العربية واهتمت وحدها بتوسيع التجارة في البحر المتوسط. ومرت السنون وممالك النصارى تجمع شملها الى ان تمكنت من استرجاع جزائر البحر من ايدي العرب ثم استردت منهم اسبانيا كلها سنة ١٤٩٤ وكان اهالي البندقيّة قد استولوا على مقاليد التجارة في البحر المتوسط وانتشرت سفنهم فيه وعبرت منه حتّى وصلت الى البلاد الانكليزيّة

وما نراهُ الآن بين الناس من الانقياد للعدل والانصاف واعطاء كل ذي حق حقهُ لم

يكن متغلبًا عليهم في كل زمان بل كانوا في اول امرهم يعدلون في اهليهم ويستحلون كل ما لسواهم ثم صاروا يعدلون في ما للقبيلة كلها ويستحلون ما لسواها فيأخذونه نهبًا واغتصابًا اذا استطاعوا . ثم صاروا يعدلون في كل ما للملكة او للامة ويستحلون ما لسواها . ولذلك لم يخلُ البحر المتوسط منذ اول عهده بالعمران من قرصان يشنون الغارة على غيرهم ويغزونهم بحرًا وينهبونهم كما يشن القرصان الغارة على غيرهم برًا ويغزونهم . وزاد عدد هؤلاء القرصان وتفاقم شرهم في العصور الاخيرة وكانت مياههم بلاد الجزائر فالقوا الرعب في قلوب التجار وخافت اوربا كلها سطوتهم الى ان اقبل عليهم اللورد اكسموث الانكليزي باسطولٍ سنة ١٨١٦ وكسر مراكبهم ثم ابتدرتهم فرنسا بضربة قضت عليهم وضمت بلاد الجزائر الى املاكها فزال القرصان من البحر المتوسط

والآن قد عاد هذا البحر الى مجده الاول ولا سيما بعد ان فتحت ترعة السويس وتسابقت فيه سفن الممالك والشركات التجارية . ولكن مدن المشرق التي كانت قابضة على اعنة التجارة والثروة قد طرحتها من يدها منذ سنين كثيرة . ولا نعلم أتبقى عناكب النسيان ناسجة علينا ام نهبُّ من سباتنا الطويل ونجاهد في ميدان التجارة لاسترجاع المجد الذي خلّفه لنا جدادنا قدامة ابناؤهم باقدامهم

القنفر الكبير

اذا انفصلت قبيلة عن شعبها وسكنت وحدها زمانًا طويلاً واستقلّت بنفسها لايمضي عليها قرون كثيرة حتّى تختلف لغتها وعاداتها عن لغة شعبها وعاداته وشواهد ذلك كثيرة . وما يحدث في اللغات والعوائد حدث في طباع الحيوانات والنباتات فان الجزائر التي انفصلت عن القارات منذ عهدٍ قديم جدًّا اختلفت طباع حيواناتها ونباتاتها عن طباع حيوانات تلك القارات ونباتاتها مع انها كلها من اصول واحدة . ومن اقوى الشواهد على ذلك حيوانات استراليا ونباتاتها فانها تختلف اختلافًا عظيمًا عن حيوانات القارات القريبة منها ونباتاتها

ومن اغرب حيوانات استراليا واكبرها القنفر وهو حيوان صغير الراس واسع العينين ضخم الحنوين والعجز قصير اليدين طويل الرجلين ثخين الذنب طويله قويه وجهه كوجه الظبي وفكه الاعلى اطول من فكه الاسفل وصوفه رمادي ناعم ويظهر شكله باوضح بيان من صورته